مقياس: الدراسات الثقافية

المحاضرة رقم 01

الثقافة، الإيديولوجيا والهيمنة:

تتناول هذه المحاضرة مفاهيم أساسية في النقد الثقافي والإعلامي. في النظريات التي سنتطرق لها، تبرز الثقافة دوما في وضعيات تاريخية محددة، لخدمة مصلح اقتصادية واجتماعية خاصة.، وأداء وضائف اجتماعية مهمة.

بالنسبة لماركس وإنجلز، تخدم الأفكار الثقافية لعصر ما مصالح الطبقة الحاكمة، مقدمة وموفرة إيديولوجيات تشرعن – تعطي الشرعية- سيطرة الطبقة. في عمل غير منشور موسوم بالإيديولوجيا الألمانية 1945 the german ideology يقدم ماركس و إنجلز لأول مرة نظريتهما المادية للتاريخ ، حيث يطرحان تصورا مفاده أن المصالح المادية والصراعات الطبقية تمثل القوى الحاكمة والمحددة لمجرى التاريخ – في مقابل أعمال الأشخاص، الأفكار، القوى الثقافية، مهما عظمت أو الأحداث السياسية مثل الانتخابات أو الحروب.

تتجلى القاعدة الاقتصادية للمجتمع بالنسبة لماركس وإنجلز في قوى وعلاقات الإنتاج والتي تتشكل وتبنى فيها الثقافة ولاإيديولوجيا لتأمين سيطرة الجماعات الاجتماعية الحاكمة. يعتبر نموذج " القاعدة/ البنية الكلية base/superstructure" المؤثر هذا الاقتصاد القاعدة أو الأساس للمجتمع، وأشكال الحياة الثقافية، القانونية، السيايسية وغيرها من أشكال الحياة بمثابة البنى الكلية–superstructures – والتي تنشأ من كما تعمل على إعادة إنتاج القاعدة الاقتصادية. عمل كثير من المنظرين على بلورة هذا النموذج ومتابعته، مراجعته، وحتى معارضته، محاولين التنظير ، مثلا، لكيفية اشتغال الثقافة والإعلام، بشكل أدق، في المجتمعات والحياة المعاصرة.

بالنسبة للمنظر الماركسي الإيطالي، أونتونيو غرامشي Antonio Gramsci تشكل القوى الفكرية والثقافية الحاكمة في عصر ما شكلا من الهيمنة، أو سيطرة بواسطة الأفكار أو الأشكال الثقافية والتي تبعث على قبول حكم وسيادة الجماعات الحاكمة في مجتمع ما. من كتابه مفكرات السجن Prison Notebooks يضرب غرامشي مثالا عن الفاشية الإيطالية يوضح مفهوم الهيمنة، والذي يتم فيه استبدال النظام البرجوازي

السابق في إيطاليا بآخر يحكم القبضة على الدولة ويمارس تأثيرا، في الغالب قمعي، على المدرسة، الإعلام، وغيرها من المؤسسات الثقافية، الاجتماعية، والسياسية. وقد سجن غرامشي نفسه جراء موقفه من نظام موسوليني الفاشي، وأثناء تواجده بالسجن قام بكتابة نقد عن الطرق التي بواسطتها أصبحت الفاشية القوة الحاكمة في إيطاليا، وهو تحليل بلور من خلاله شروحا عن كيفية بلوغ جماعات اجتماعية ومؤسسات حاكمة لمستوى السيطرة أو الهيمنة.

عرف غرامشي الإيديولوجيا بوصفها الأفكار الحاكمة أو السائدة والتي تقدم الإسمنت الاجتماعي الذي يوحد و يعمل على تماسك النظام الاجتماعي المسيطر. وقد وصف " فلسفة القيم Phiosophy of Praxis" خاصته كطريقة تفكير في مقابل الإيديولوجيا، والتي تشمل، ضمن أمور أخرى، تحليلا نقديا للأفكار الحاكمة.

في عمل آخر يشير غرامشي أنه في أيامه كانت الصحافة الأداة الأساسية لإنتاج الشرعية الإيديولوجية للمؤسسات القائمة والنظام الاجتماعي، ولكن عدة مؤسسات على غرار الكنيسة، المدرسة، وكثير من الجمعيات والجماعات لعبت أيضا دورا. واقترح بلورة نقد لهذه المؤسسات والإيديولوجيات التي شرعنتها، مرفوقا بإبداع مؤسسات مضادة وأفكار يمكنها خلق بدائل للنظام القائم.

طور أعضاء من معهد البحوث الاجتماعية، القائم ابتداء بفرانكفورت بألمانيا في العشرينيات، طوروا أول منظورات نقدية عن الثقافة الجماهيرية والاتصال في دراساتهم الشهيرة عن الصناعات الثقافية. تحليل ت.و. أدورنو للموسيقى والثقافة الشعبيتين(1932، 1941، 1978، 1982، 1989، 1991)، دراسات ليو لوانثال للديماغوجيين الشعبين، والأدب الشعبي ،والمجلات الشعبية(1949، 1957، 1961) ، والمنظورات والانتقادات المبلورة من طرف أدورنو وهوركهايمر في دراستهما الشهيرة عن الصناعات الثقافية(1972، وأدورنو 1991) توفر أمثلة كثيرة عما أصبح يعرف لاحقا بمقاربة "مدرسة فرانكفورت".

بصفتهم ضحايا للفاشية الأوربية، خبر أعضاء معهد البحوث الاجتماعية بشكل مباشر طرق استعمال النازية لوسائل الثقافة الجماهيرية لتحقيق الخضوع للمجتمع والثقافة الفاشيين. و أثناء المنفى في الولايات المتحدة، خلصت المجموعة إلى اعتقاد مفاده أن الثقافة الإعلامية الأمريكية أيضا على درجة كبيرة من التأدلج(جد إيديولوجية)، وتعمل لترويج مصالح رأسمالية الولايات المتحدة. تبعا لوقوعها في يد الشركات

العملاقة، يتم تنظيم الصناعات الثقافية وفقا لبنية الإنتاج الكمي الهائل، والذي يفرز منتوجات بكم هائل – دونما اعتبار للنوعية– وهو ما يتولد عنه نظام ثقافي تجاري بامتياز، والذي بدوره يبيع القيم، نمط الحياة، ومؤسسات الرأسمالية الأمريكية.

وفر عمل مدرسة فرانكفورت ما دعاه لازارسفيلد، وهو أحد أهم أعمدة الدراسات الاتصالات الحديثة، مقاربة نقدية، و الذي ميزها عن "البحوث الإدارية" التي تخدم مصالح الشركات والمؤسسات المسيطرة. آراء كل من أدورنو وليو لوانثال وغيرهما من أعضاء الدائرة الضيقة لمعهد البحوث الاجتماعية جرى معارضتها من طرف المنظر والتر بنيامين، عضو متميز –وإن كان غريبا نوعا ما– ينسب على نحو غير وثيق بالمعهد. ميز بنيامين، الذي كان يكتب في باريس في الثلاثينيات، بين الجوانب التقدمية في التكنولوجيات الجديدة في الإنتاج الثقافي: التصوير الفوتوغرافي ، الفيلم والراديو. في "عمل الفن في عصر إعادة الإنتاج الميكانيكي(1969)the work of art in the age of mechanical reproduction "، أشار بنيامين لكيف تزيح وسائل الإعلام الجماهيرية الجديدة لأشكال ثقافة الأقدم لتحل محلها، حيث يحل الإنتاج الكثيف والمستمر للصور الفوتوغرافية، الفيلم، التسجيلات(الكاسيت وغيره)، المنشورات،...يحل هذا الإنتاج الكثيف محل التأكيد على الأصالة (originality) وتفرد وسحر الأعمال الفنية في زمن سابق. متحررا من أسرار وسحر الثقافة الراقية، اعتقد بنيامين أن الثقافة الجماهيرية يمكنها تثقيف (غرس أفكار) وتأهيل أشخاص نقديين أكثر وجعلهم قادرين على تقييم وتحليل ثقافتهم، بنفس القدر الذي يستطيع أنصار الرياضات تشريح وتقييم النشاطات البدنية. بالإضافة إلى ذلك، لدى تأمله ومعالجته زخم وغزارة الصور السينمائية المنتجة، خلص بنيامين إلى اعتقاد أن الانطباعات والصور الذاتية المكونة أقدر على التصدي لمزيج وبلبلة التجربة واستيعابها في المجتمعات الحضرية الصناعية.

وبصفته نفسه متعاونا مع الفنان الألماني غزير الإنتاج بيرتولت بريشت Bertolt Brecht ، عمل بنيامين مع بريشت على الأفلام، المسرحيات الإذاعية، وحاولا استخدام وسائل الإعلام كأجهزة للتقدم الاجتماعي. في إسهامه الموسوم "الفنان كمنتج(1934) The Artist as Producer" جادل بنيامين أن المبدعين الثقافيين التقدميين يجب أن " يعيدوا توظيف جهاز الإنتاج الثقافي ،فيعملوا مثلا على تحويل الفيلم والمسرح إلى منتدى للتنوير والنقاش السياسيين بدل مجرد وسائل لترفيه الجمهور ببرامج الطبخ. كتب كل من بريشت وبنيامين مسرحيات إذاعية كما كانا مهتمان بالأفلام كوسيلة للتغيير الاجتماعي التقدمي. في عمل عن نظرية

الراديو، استبق بريشت الأنترنت بدعوته إلى إعادة بناء جهاز البث من نقل في اتجاه واحد إلى اتصال تفاعلي في الاتجاهين، أو أكثر- شكل تجسد ابتداء في راديو CB ، ثم لا حقا في الاتصال الإلكتروني عبر الحواسيب.

فوق ذلك، أراد بنيامين تطوير سياسة ثقافية وإعلامية راديكالية مع نمو ثقافات معارضة بديلة. إلا أنه أقر أن وسائل الإعلام مثل الفيلم يمكن أن يكون لها تأثيرات محافظة. بينما اعتبر أمرا تقدميا فقدان الأعمال المنتجة بكثافة لزخمها وجاذبيتها، وقوتها السحرية، كما أنها كانت تعرض منتجاتها الثقافية تلك لمزيد من النقاش النقدي والسياسي، اعترف أن الفيلم يمكن أن يخلق نوعا جديدا من السحر أو الجاذبية الإيديولوجية من خلال الهوس الشديد بالشهرة وتقنيات مثل الصور المكبرة أو البوستيرات العملاقة(close-up) التي تخلع شيئا من السحر على بعض النجوم أو الصور بواسطة تكنولوجيا السينما. هكذا تبرز أهمية عمله أيضا في تركيزه على تكنولوجيا الإنتاج وإعادة الإنتاج الثقافي، إذ رأى التغييرات في التقنيات الإعلامية الجديدة، وقام بنقد سياسي مع دعوته لتحول ديمقراطي لتكنولوجيا والمؤسسات الإعلامية.

قام كل من ماكس هوركهايمر وتيودور أدورنو بالرد على تفاؤل بنيامين في تحليل جد مؤثر للصناعة الثقافية منشور في كتابهما " جدل التنوير The dialectic of Enlightenment" الذي صدر في 1948 وترجم إلى الإنجليزية في 1972. وقد جادلا أن نظام الإنتاج الثقافي الواقع تحت سيطرة الفيلم، البث الإذاعي، الصحف، المجلات، يتم التحكم فيه بواسطة الإشهار والمقتضيات التجارية، وتعمل على تكريس الخضوع للنظام الرأسمالي الاستهلاكي. بينما نعتت بعض الانتقادات اللاحقة مقاربتهما بالجد مغرضة، والاختزالية، والنخبوية، يجدر التنويه أن هوركهايمر وأدورنو جمعا بين تحليل نظام الإنتاج، التوزيع والاستهلاك الثقافي ومن جهة، وتحليل بعض أنواع نصوص الصناعات الثقافية الأخرى، وهكذا قدما نموذجا لطريقة نقدية ومتعددة الأبعاد للنقد الثقافي، نموذج يتجاوز الانقسام والاختلاف بين المقاربات التي تركز فقط على الاقتصاد السياسي، النصوص، أو الجماهير.

في مقال عن الفضاء العمومي نشر في موسوعة، يلخص المنظر الاجتماعي الألماني يورغن هابرماس الأفكار في كتابه المزلزل " التحول البنيوي للفضاء العمومي The structural Transformation of the Public Sphere". مع تقديمه لخلفية تاريخية لانتصار ما وصفه هوركهايمر وأدورنو بالصناعات الثقافية، سجل هابرماس كيف تميز المجتمع البرجوازي بنمو وبروز الفضاء العمومي، والذي انتصب بين المجتمع المدني والدولة

والذي لعب دور الواسطة بين المصالح الخاصة والعامة. في سابقة تاريخية، تمكن أفراد ومجموعات من تشكيل الرأي العام، تيسر لهم التعبير المباشر عن حاجاتهم ومصالحهم، ومؤثرين في نفس الوقت على الممارسة السياسية. جعل الفضاء العمومي البرجوازي ممكنا تشكيل فضاء للراي العام يقابل سلطة الدولة والمصالح القوية التي كانت في طريقها إلى المجتمع البرجوازي.

إلا أن هابرماس سجل التحول من الفضاء العمومي اللبرالي الذي يرجع أصله إلى التنوير والثورتين الأمريكية والفرنسية، التحول إلى فضاء عمومي تهيمن عليه وسائل الإعلام في العصر الحالي والذي سماه " رأسمالية دولة الرفاه والديمقراطية الجماهيرية welfare state capitalism and mass democracy" .هذا التحول التاريخي تم تقعيده أو تأسيسه في تحليل هوركهايمر وأدورنو للصناعات الثقافية ، حيث استحوذت شركات عملاقة على الفضاء العمومي وحولته من فضاء للنقاش العقلاني إلى أخر للاستهلاك الخادع والسلبية. في هذا التحول، انتقل "الرأي العام "من إجماع عقلاني ناتج عن حوار ونقاش وتفكير إلى راي تفبركه نتائج سبر الآراء وخبراء الإعلام.

في هذا التحليل، تم كسر الارتباط المتبادل بين فضاء النقاش العام والمشاركة الفردية، وتحويله إلى ساحة للتلاعب والاستعراض السياسيين، حيث يعمل المواطنون-المستهلكون على تناول وبلع مواد الترفيه والإعلام بشكل سلبي. وهكذا يصبح "المواطنون" متفرجون على تمثيلات وخطاب وسائل الإعلام، والتي تقوم بتحكيم (دور الحكم) الحوار العمومي، وهكذا تحيل جماهيرها وتختزلهم إلى مواضيع إخبارية وشؤون عامة.

تنزع انتقادات هابرماس إلى إصباغ المثالية على الفضاء العمومي البرجوازي الأسبق، مقدما له كفضاء للحوار والنقاش العقلاني بينما في الواقع عانت بعض المجموعات فيه من التهميش. بينما يفترض مفهوما الفضاء العمومي والديمقراطية احتفاء ليبراليا وشعبويا بالتنوع، التسامح، النقاش والإجماع، في الواقع، كان الفضاء العمومي البرجوازي واقعا تحت سيطرة الذكور البيض أصحاب الممتلكات. عملت انتقادات هابرماس على توثيق الفضاءات العمومية للطبقة العاملة، العامة والنساء المبلورة إلى جانب الفضاء العمومي البرجوازي لتمثيل أصوات ومصالح المهمشين في هذا المنتدى. هابرماس محق في كون أنه في زمن الثورات الديمقراطية برز فضاء عمومي حيث ولأول مرة في التاريخ يتمكن مواطنون عاديون من المشاركة في الحوار والنقاش السياسيين، وينظمون بل يتصارعون ضد السلطات الظالمة. تشير رواية هابرماس إلى الدور المتزايد الأهمية

لوسائل الإعلام في السياسة والحياة اليومية، وطرق احتلال مصالح الشركات لهذا الفضاء، مستخدمة الإعلام والثقافة لترويج مصالحها الخاصة.

قضية الإيديولوجيا كقوة احتلال(كولونيالية)موضوع بارز في عمل الفيلسوف الفرنسي لويس ألثوسير Louis Althusser ، و الذي كانت أفكاره جد مؤثرة في السبعينيات، خاصة في تشكيل الدراسات الثقافية البريطانية الأولى وعمل الماركسي البعد-ثقافي فريديريك جيمسون Fredric Jameson. كما أوضح ستيوارت هالStuart Hall (1978) : "تعتبر تدخلات ألثوسير و تطورها اللاحق جد معلمة و مثرية لميدان الدراسات الثقافية". استند ألثوسير على موجة البنيوية في فرنسا ما بعد الحرب، مازجا بين سيميوطيقا بارث، والأنثوبولوجيا البنيوية لليفي ستروس، نظرية التحليل النفسي، والماركسية المراجعة لبلورة تصور ل"لأيديولوجيا" يقوم على مفهوم تكوين اجتماعي مشكل من الممارسات الاقتصادية، الاجتماعية، والإيديولوجية.

بالفعل، يعتبر ألثوسير هو من حول النقاش حول "الإيديولوجيا" ليتركز على الممارسات اليومية والطقوس المنظمة عبر المؤسسات الاجتماعية التي عينها ك" جهاز الدولة الإيديولوجي"(المدرسة، الدين، الاسرة، وسائل الإعلام، وغيرها). وجادل بأن هذه الممارسات المغلقة هي جزء من نظام مغلق يتنادى فيه الأفراد إلى نظام اجتماعي، حيث يصيرون-برفع الياء الأولى وتشديد الأخيرة- رعايا عن غير وعي من طرف الخطابات والمؤسسات الاجتماعية المسيطرة. يبرز إسهامه الأكثر مقروئية " الإيديولوجيا وأجهزة الدولة الإيديولوجية Ideology and Ideological State Apparatuses" افتراضه الأساس أن التجربة، الوعي، والذاتية ذاتها هي نتاج علاقة خيالية بين الفرد وظروف عيشه الحقيقية، علاقة تشيء(تحيله شيئا) التراتبات الاجتماعية، وتحث الأفراد على قبول أنظمة القمع. كما يخط بقلمه:"كل إيديولوجيا لها وظيفة(وهو ما يعرفها) أن تشكل من أفراد حقيقيين رعايا (لا كمواطنين في الأصل)".(ألثوسير، 1971، ص،171).

بجانب المنظرين والنظريات والجماعات المتنوعة التي ذكرنا ظهرت أخريات كثيرة ومتنوعة حللت التشكيلة الحالية للثقافة، الإيديولوجيا والهيمنة، كما أن المواقف المذكورة تطورت في اتجاهات عديدة ومتنوعة، وتعرضت للنقد والمعارضة بشكل حاد بالتزامن مع بروز تيارات وحركات سياسية ونظرية جديدة إلى الواجهة. وعليه، بينما ظهرت الدراسات الثقافية والإعلامية النقدية في الستينيات في فترة تميزت بتأثير هائل للماركسية، نزعت

التطورات النظرية اللاحقة إلى معارضة المواقف الماركسية وإلى بلورة مقاربات شديدة التنوع نحو الثقافة ووسائل الإعلام.